السياسة والوعـظ، مقاربة حجاجية لنماذج من خطب الخوارج والأمويين الإيتوس بين الإيديولوجيا ومخالفة القول للعمل

د. كريم الباسطي

باحث في اللغة العربية وآدابها، المغرب

البريد الإلكتروني: kelbaciti@hotmail.com

معرف (أوركيد): 0000-0003-4012-8079

بحث أصيل الاستلام: ٢٨-٢-٢٠٢١ القبول: ٢٨-٣-٢٠٢١ النشر: ٢٨-٤-٢٠٢١

الملخص:

يعد الوعظ نشاطا إنسانيا يحركه الدين ويدور في مداره، له مقصدان إما تذكير وإما إخافة. وأن يكون كذلك فهذا لا يعني أنه تقويمي تصحيحي أبدا، ذلك أنه قد يتدثر بدثار الإيديولوجيا ويلتبس بالسياسة فيصير أداة تسخير ومطية لتحقيق غايات أخرى.

وقد حاولنا في هذه المقالة أن نعالج حدود تداخل خطابي الوعظ والسياسة في خطب الخوارج وبعض حكام بني أمية في شخص الحجاج بن يوسف الثقفي، ساعين إلى الوقوف عند وظيفة الوعظ في الخطاب السياسي وأدواره، مستعينين بالبلاغة القديمة كما أصلَّ لها أرسطو في خطابته، والتي تضمنت مكونات أصول هي على التوالي الإيتوس والباتوس واللوغوس، وقد اقتصرنا على مكونها الأول واستثمرنا مكونها الثاني لنرصد كيفية بناء الخطيب صورةً عن نفسه أو جماعته تحت محور الإيتوس بين القناعة الإيديولوجية ومخالفة القول للعمل، وأن نرصد من جهة أخرى تهافت بعض هذه الخطب، وانتهينا إلى أن الوعظ يُسخَّر في الخطاب السياسي لإضفاء الشرعية والتزكية، وأنه في كثير من الأحيان ينزلق عن مساره ويصبح توظيفه فجا.

الكلمات المفتاحية:

الوعظ، السياسة، الإيتوس، الباتوس، الحجج

للاستشهاد: الباسطي، كريم. (٢٠٢١). السياسة والوعـظ، مقاربة حجاجية لنماذج من خطب الخوارج والأمويين الإيتوس بين الإيديولوجيا ومخالفة القول للعمل. ضاد مجلة لسانيات العربية وآدابها. مج٢، ع٢. ١٩٧-٢٣١ https://www.daadjournal.com/

Atıf İçin / For Citation: Elbaciti, Karim. (2021). Siyaset ve Vaaz - Hâricîler ile Emevîler Arasındaki Hutbelere Diyalektik Yaklaşım - İdeoloji ile Söz-Eylem Zıtlığı Arasında Ethos. Arap Dilbilimi ve Edebiyatı Dergisi – DÂD. Cilt/Volume 2, Sayı/Issue 3, 197-231, https://www.daadjournal.com/

Politics and Preaching, an Argumentative Approach to Examples of the Sermons of the Khawarij and bany Omaya: Ethos Between Ideology and the Contradiction of Saying Action

Dr. Karim Elbaciti

Researcher in the Arabic Language, Morocco

E-mail: kelbaciti@hotmail.com

Orcid ID: 0000-0003-4012-8079

Research Article Received:28. 2.2021 Accepted:28. 3.2021 Published: 28. 4.2021

Abstract:

Preaching is a human activity that is driven by religion and revolves around it. It has two purposes, either as a reminder or as a fear. As such, it does not mean that it is corrective, because it may be covered in ideology and be confused with politics. Therefore, it becomes a tool for achieving other goals. In this article, we have tried to address the limits of the overlapping of preaching and politics in the sermons of the “the khawarij” and some rulers of “bany omaya” in the person of Hajjaj bin Yusuf al-Thaqafi. We have sought to point out the function of preaching in political discourse and its roles, using the old rhetoric as outlined by Aristotle in his discourse, which included components of origins that are respectively Etos, patos, and Logos. we have confined ourselves to their first component and invested in the second component to monitor how the preacher builds an image of himself or his group under the axis of ethos between ideological conviction and contradicting the statement of action. On the other hand, we have tried to monitor the rush of some of these speeches. We concluded that preaching is used in political discourse to legitimize and acclaim, and that it often slips off course and its employment becomes crude.

Keywords:

Preaching, Politics, Ethos, Pathos, Arguments

Siyaset ve Vaaz - Hâricîler ile Emevîler Arasındaki Hutbelere Diyalektik Yaklaşım - İdeoloji ile Söz-Eylem Zıtlığı Arasında Ethos

Dr. Karim Elbaciti

Arap Dili Alanında Araştırmacı, Fas

E-Posta: kelbaciti@hotmail.com

Orcid ID: 0000-0003-4012-8079

Araştirma Makalesi Geliş: 28.02.2021 Kabul: 28.03.2021 yayın: 28.04.2021

Özet:

Vaaz dinin harekete geçirdiği ve onun etrafında dönen insani bir faaliyettir. Hatırlatma veya korkutma olmak üzere iki hedefi vardır. Böyle olması onun sadece ıslah etmekle ilgilendiği anlamına gelmez. Çünkü vaaz ideolojiye bürünüp siyaset ile karışabilir. Bu durumda başka hedeflerin peşinde olan bir araca dönüşebilir.

Bu makalede, Hâricîler ile el-Haccâc bin Yusuf es-Sekkafî'nin şahsındaki bazı Benî Ümeyye yöneticileri arasındaki hutbelerde, vaaz hitabıyla siyasetin birbirine girme derecelerini incelemeyi hedefledik. Amacımız vaazın siyasi hitaptaki işlevini ve rolünü anlamaktır. Bunun için Aristo'nun Etos, Patos ve Logos sırasıyla temel bileşenleri içeren Retorik'inde temellendirdiği kadim belağattan yardım aldık. Retorikin ilk bileşeni olan Etos ile sınırlı kaldık. Hatipin ideolojik kanaat ile söz-eylem zıtlığı arasında Etos ekseninde kendisi veya toplumu hakkında inşa ettiği imgenin niteliğini gözlemlerken ikinci bileşenden faydalandık. Başka bir taraftan da bu hitaplardan bazılarının birbiriyle çelişmelerini gözlemledik. Vaazın siyasi hitapta yasallaştırma ve tezkiye etmek amacıyla kullanıldığı ve çoğu zaman kendi rotasının dışına çıkıp işlevinin yetersizleştiği sonucuna ulaştık.

Anahtar Kelimeler:

Vaaz, Siyaset, Etos, Patos, Tartışma.

تقديم:

لا نقصد من هذا العنوان ما قد يتبادر إلى الأذهان من أوجه الصلة التي توحي إليها رابطة العطف الواو، والتي تفيد في بعض منها إقبال الوعاظ على أهل السياسة بالوعظ المباشر أو الوعظ المكتوب فيما يعرف بوعظ السلطان، فهذا ليس مما نروم دراسته في هذا المحور؛ لأن مجاله ليس هاهنا، وقد يشكل موضوع دراسة بحثية مستقلة، أما الذي نبتغيه فهو الوقوف عند حدود التداخل والتوارد الحاصل بينهما وكيف يمكن أن يكون الوعظ ذا بعد وظيفي إيديولوجي يخدم أغراضًا خاصة، أي إن الوعظ غدا إوالية من استراتيجية خطابية مقصودة بعينها لتسريع وتيرة المقبولية والاستجابة الحتمية، كما نتقصد كذلك معرفة حيادية الوعظ في خطب الحكام من عدمها.

. الخطاب السياسي والحاجة إلى الوعظ:

يعد الخطاب السياسي عنصرا منشئا للسياسة وعاكسا لتمثلات الذات السياسية، وهو خطاب يؤصل لمرجعية فكرية وسياسية في شكل مبادئ وقواعد تحدد التموقعات والمواقف الثابتة وتلك التي هي مجال حيز التفاوض، كما أنه صادر عن قوى اجتماعية ذات رؤية سياسية في لحظة تاريخية، مما يجعل منه نسقا فكريا معبرا عن الذات وفعلا تواصليا وممارسة اجتماعية محورها الصراع مع الآخر حول تحصيل الشرعية وتأكيد المصداقية في القول والفعل.

ويسمح منطق الصراع لتحقيق الغلبة بالتزود والاستعانة بالخطابات المجاورة التي ترفده بعتادها في تحصيل التأثير والمنفعة، فكانت الحاجة إلى الوعظ وأدواته في الاستمالة والإفادة من لغته الدينية التي تصير مكونا من اللغة السياسية.

وهذا الخرق الكائن بين الخطابيْن أملى علينا دراسة حدود التداخل وإمكانات التوظيف والتسخير في مرحلة تاريخية حبلى بالأحداث الفارقة والتي امتد أثرها إلى ما بعدها، وكان اختيارنا منصبا على أنموذج سياسي استغل الوعظ في السياسة ومثلته فرقة الخوارج، وآخر مارس الوعظ وهو في موقع من يحكم وجسّده بنو أمية.

الوعظ عند الخوارج:

اختلف الصحابة حول حكم عثمان (ض) ومقتله، واختلف علي (ض) مع معاوية (ض) وخرج فريق عليهما ونشأ عن كل فرقة خطباء مصاقع، قاموا بأدوار المنافحة والمدافعة والمجاهدة والمصابرة والتثبيت.

صحيح أن الدراسات(١) التي أنجزت حول شعر الخوارج انتهت إلى أن هذا الشعر تمثيل لنفَس وجداني ولروح دينية فياضة، وليس يحمل تصورًا عن عقيدة خارجية دينية أو سياسية، فشعرهم ليس شعر مذهب وعقيدة لأنه لا يكشف عقائدهم في الإمامة ومرتكب الكبيرة والوعد والوعيد وفي حقيقة الإيمان، بل هو يمثل شعورهم الديني، وعلى الرغم من قلة ما بلغنا من خطب الخوارج لاعتبارات مذهبية وزمنية، إذ التدوين كان في العصر العباسي وهو عصر ضَعُف فيه الخوارج ثم إن عداء الفرق الأخرى المتغلبة عليها نفّر من الجمع والتدوين لهذه الفرقة، فإن السؤال الذي نود استبحار الإجابة فيه هو حدود التداخل بين المعطى السياسي والنفَس الوعظي، وهل تشربت الخطابة الوعظية ملامح عقيدة حزبية؟

الخوارج فرقة متشعبة ومتباينة الرأي بيد أنها اشتغلت بالحرب فغلبها الحزن والفقد، فاتسعت في الاستهواء والاستمالة والتأثير، ولم تشتغل بالتعمق والتأمل الفكري لعرض آرائها وتمحيصها تمحيص إبانةٍ وتعليلٍ ومقارعة، وجمع بين فروعها رؤية ناظمة لتصور الدين والسياسة، بؤرتها الخروج على الحاكم الظالم، والخروج من الديار المعدودة ديار كفر، وهو خروج يحمل معنى ثوريا، يقوم على نقدٍ سياسي للحكام ونقدٍ اجتماعي للرعية، ومجاهدة للذات عبر تزهيدها وإقدامها على الموت الذي غدا غايةً يُقبل عليها الشاري نفسه لله.

(١) من الدراسات نذكر: شعر الخوارج، جمع وتقديم: إحسان عباس، وشعر الرثاء والصراع المذهبي في العصر الأموي لـ: محمد أبو المجد علي.

اختلط إذن الزهد بالثورة السياسية والاجتماعية اختلاط الدين بالسياسة، وقد استوجب بناء تصور سياسي قراءةَ واقع تاريخي من خلال عملية تأويلية ذات مرجعية دينية معينة حول طبيعة الحكام ونظام الحكم، وضمانا لتحقيق التغيير إنزالا لهذه الرؤية العقيدية أُستُدعي الخروج بصفته قرارا سياسيا واجتهادا دينيا بمعنييه السياسي والمكاني: زهادة الدنيا ورجاء ما عند الله عبر محبة الموت.

الإطار الثوري لفرقة الخوارج محدِّد لطبيعة الخطاب السياسي الذي تروّج له وتعتقده، وإذا كان مجال اشتغال السياسة هو دائرة الممكن، وكان الخطاب السياسي من طبيعته النسبية، فإن الرهان الأسمى لهذا الخطاب "ليس كما يمكن أن يعتقد، هو حمل رسالة أو نشر إيدولوجية، أو التحريك من أجل فعل، بل هو تأكيد هوية خطيب من أجل تسهيل انخراط مستمع"(١).

بمعنى أن وظائف الخطاب السياسي تتجاوز الحشد والأدلجة إلى الانتصار لهوية الخطيب أو المجموعة السياسية، ومحدد هذه الهوية والكاشف عنها هو الخطاب في حد ذاته بصفته تعبيرا عن رؤيا المجموعة المنتمية لذاك الخطاب، أي تعبيرا عن فئة متحيزة إلى تلك الرؤية السياسية، وليست الهوية السياسية سوى جُماع ما تبنيه الذات من تمثلات حول نفسها، أي ما نسرده ونحكيه عن أنفسنا، الهوية السياسية بهذا المعنى تمثلٌ خطابي يتحقق عبر الكلمات والرموز تكون فيه عبارة "حدد هويتك" مطابقة ل "قدم نفسك".

والسياسة بهذا الاعتبار الحزبي تتفاعل مع المستجدات من منظور واقعي يرصد المتغيرات الحية في مشهد سياسي بعينه بعيدا عن التوجيهات العامة التي تقيّم السياسة من منطلق ما ينبغي أن يكون فتمدح الخير وتذم الشر.

---

(1).Damon Mayaffere: dire son identite.Etude du discours politique franacais aux XX siecle نقلا عن: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات:٧٨

وكل خطاب سياسي يتعلق بهوية سياسية تزكي الذات وتمجّدها في مقابل تهميش الآخر والتهوين منه، فتتضخم هذه الذات المهُولة بعناصر وجدانية وأسطورية ودينية، تصونها من التلاشي وتحفظ لها البقاء واستمرارية وحدة الوجود، وتتحقق صيانة الذات ورعايتها بفضل ما يُهال عليها من المدائح والتفخيمات، وما يُسلب من الآخر من فضائل يُستعاض عنها بذم جارحٍ مبطن أو مكشوف يبخِّسها حقها بأحكام سالبة.

إن غاية الخطيب من هذا الخطاب الهوياتي الذي يعطي الأسبقية للعناصر الذاتية والأسطورية هو إقامةُ شخصية أخلاقية[1] Ethos وطمأنة المستمع بالانتماء إلى مجموعة من الأفكار والكلمات"، [2] بمعنى أن الهوية السياسية هي هوية خطابية منتزعة عن تصورِ ما تكوِّنه الذات عن نفسها، بصفته جامعا وموّحدا، والعنصر الخطابي الموحد لهوية مجموعة الخوارج عنصر بطولي ومطلبي: طلب العدل عبر الموت الذي صار غاية وقدَرا نسير إليه وفيه راحة، بينما هو(الموت)عند الشيعة مثلا عنصر مأساوي يؤسّس لمقولة المستضعفين في الأرض.

تلتقي هنا عند الخوارج السياسة بالدين، وتبعا تلتقي الهوية السياسية بالتأويل المعتمد لنصوص الدين، ويمتزج الخطاب السياسي بالخطاب الديني، وبالوعظ خاصة مادام رجاله ارتضوا الزهد علامة فارقة تميزهم والشهادة سبيلهم.

هوية الخطيب السياسي من هوية الواعظ الزاهد، إذ كلاهما، وهما كالشيء وظله، ينطلقان من تصور مشترك ويتوجهان إلى مستمع يتوخيان انخراطه واستجابته الفاعلة.

وعظ الخوارج عموما له صلة بالأحداث التاريخية وليدة تلك المرحلة، من ذلك خطبة أبي حمزة الشاري[3]، وهي خطبة[4] موجهة إلى أهل المدينة ذاتُ قصد سياسي

(١) الإيتوس مكون من مكونات البلاغة اليونانية القديمة، ويعني ما يتركه المتكلم، عن نفسه، من أثر وانطباع خلقي لدى المستمع.

(٢) أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات:٨٣.

(٣) الشراة: سموا بذلك لقولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها.

(٤) جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة: ٤٧٦/٢، خطبة رقم ٤٥٠.

واضح تبتغي النصرة والتخلف عن نصرة آل مروان، غير أن بدايتها إيصاء وعظي يجمع في ثناياه بين العناصر الدعوية الآتية:

- الدعوة إلى تقوى الله وطاعته.
- والعمل بكتابه وسنة نبيه، وصلة الرحم.
- وتعظيم حقوق الله، وتصغير الباطل الذي عظّمه الجبابرة.
- وإحياء الحقوق الميتة وإماتة الجور.
- وطاعة الله وأهل طاعته.
- والقسْم بالسوّية والعدل في الرعية.
- وضْع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها.

وبعدها يأخذ الخطيب في عرض قضية الخوارج ومُنطلق فكر الخروج ومشروعها السياسي (إقامة العدل الاجتماعي) ووسيلتها في التغيير، ناشدا إياهم النصرة واللحاق لأن ما يقدمون عليه ليس مما لا يطاق.

اختراق الموعظة للخطاب السياسي أمر لا مندوحة من دفعه، ويشير في الوقت نفسه إلى أن دائرة الحدود الفاصلة بين الخطابين مخترمة، وأن الأولى هو البحث عن التفاعل والتداخل، فبالإضافة إلى دور الموعظة التمهيدي في إعداد وتسهيل تلقي المستمَع لمضمون الرسالة، فإنها تنبئ عن قواعد خلقية جامعة هي محل اتفاق الحس المشترك لدى الفئة السياسية المتلقية، إذ تكشف عن مبدإ في العدالة الاجتماعية(القسم بالسوية، التوزيع العادل للثروة وحسب الاستحقاق) وإقامة الحقوق وتعظيمها، وهما مبدآن من صميم العقيدة السياسية ووجهان من أوجه الهوية الخطابية الحاضنة، يقول: أوصيكم بتقوى الله وطاعته ...وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيوا من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، ...ندعو

إلى كتاب الله وسنة نبيّه، والقسْم بالسوية والعدل في الرعية، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها[١]

وتحدو خطبة صالح بن مسرح[٢] نفس الاتجاه، إذ يقول:"أوصيكم بتقوى الله، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت وفراق الفاسقين وحب المؤمنين"[٣].

وتوجز هذه الكلمات الوعظ في المعتقد وتبرير ذلك من نفس الخطبة: "فإن الزهادة في الدنيا ترغب العبد فيما عند الله، وتفرّغ بدنه لطاعة الله، وإن كثرة ذكر الموت تخيف العبد من ربه حتى يجأر إليه ويستكين له، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين، قال الله في كتابه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَد مِّنهُم مَّاتَ أَبَدا وَلَا تَقُم عَلَىٰ قَبرِهِۦٓۖ إِنَّهُم كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُم فَٰسِقُونَ﴾ (التوبة:٨٨)، وإن حب المؤمنين للسببُ الذي يُنال به كرامة الله ورحمته وجنته .."[٤]

وليس في حاجة إلى إيضاح ما في هذه الخطبة من مرتكزات مذهبية تعد مادة الوعظ ومنطلقه، وتثبيتها في نفوس المستمَع حاجة تربوية وتنظيمية وسياسية في آن واحد، فالخروج فراق لجماعة ناشزة حُكِم عليها بالفسق، وفي الفراق اعتزال للآخر وإنشاء لجماعة مفارِقة على أسس المحبة البيْنية بصفتهم مؤمنين.

فراق يقتضي البراء والبغض في الله، يقابله لحاقٌ بالإخوان يستلزم التوْلية والمحبة، ومادام مطلبهم العدل بصوره المختلفة، فليس يحققه في الواقع إلا الزهد والإقبال على الموت، إذ هما الكفيلان بتحقيق التسوية وتقويض الزعامة على التوالي، ولذلك حرص بعض قوادهم على تزهيد الأتباع من الدنيا وتحقيرها كصنيع قطري بن

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة: ٤٧٦/٢، خطبة رقم ٤٥٠.

(٢) كان يرى صالح رأي الصفرية، وهي من الفرق الرئيسة للخوارج.

(٣) جمهرة خطب العرب:٤٥٩/١، خطبة رقم٤٣٧.

(٤) جمهرة خطب العرب: ٤٦٠/٢، وذكرها الطبري في تاريخه: ٢١٧/٧.

الفجأة[1] في خطبة[2] مطولة موضوعها واحد متصل بالتنفير من الدنيا، قيلت بمناسبة افتتان الناس حول شراء امرأة مسْبية ذات جمال وكمال، غنمتها فرقة الأزارقة بعد مقتل زوجها عبد العزيز وهو قائدٌ وجّهه أخوه خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد والي البصرة من قِبل عبد الملك، تزايَد عليها الناس حتى بلغ ثمنها تسعين ألفا، ولكن خارجيا جزّ رأسها عنوة لما رأى من تهالك الناس عليها، فخطب قطري محذرا من الدنيا، وما الدنيا إلا امرأة، أو إن المرأة معادل موضوعي للدنيا ومفاتنها.

الوعظ هنا توجه مؤدلج سياسيا، ويخدم نوازع وجود الفرقة السياسية، ولذلك فتثبيته خطابيا هو تثبيت المتفق عليه وجدانيا وإعمال له على أرض التدافع السياسي حتى تضمن الجماعة أسباب بقائها، فيتم تمجيد الذات وتُضخّم أناها المركزية، ويخلع على قتلى الخوارج صفة القداسة، وعلى خروجهم صفة الشرعية، وعلى محاربيهم مجموعة من الصفات كالمواجهة على الرغم من القلة وكثرة التعبد، ويُشنع على الخصوم وتختط صورة سلبية عنهم مع التنديد بأعمالهم.

الوعظ هنا مقصور على دائرة الجماعة السياسية لإيمانها بجملة المعتقدات المتضمنة فيه، وفيه تثبيت لما هو ثابت وزيادة مُكنة لما هو راسخ، ولذلك ورد في الغالب الأعم تحت لفظ "أوصي" الذي يضمن التعهد والتمحل في الالتزام بما تقرر.

تصور الدنيا / المرأة: تحقير وتنفير

سنعمل على دراسة هذه الموعظة دراسة حجاجية وبشيء من الاستفاضة، ثم نعرج بعد ذلك إلى الكشف عن أبعاد التداخل بين ماهو وعظي خالص وماهو سياسي، وقد اتخذت الموعظة موضوعا لها الدنيا أو كيف يتصورها المسلم إلى جانب معادل موضوعي لها وهو المرأة.

---

(١) قطري بن الفجأة من الأزارقة، "وهي من أشد فرق الخوارج بأسا وأصلبها عودا وأكثرها عددا، وأحفلها حوادث وأنباء"، جمهرة خطب العرب: ٤٤٦/٢ الحاشية.

(٢) هناك من يرويها للإمام علي كرم الله وجهه.

يتعالق تصور الدنيا مع ما تم إقراره في المنظومة الدينية الإسلامية قرآنا وسُنة من كون الدنيا فتّانة وغرّارة وغدّارة ومتاعها قليل، ومن ثم فهو تصور مركوز في الأنسقة الذهنية المتشبعة بالتراث الديني وفي المخيال الجمعي.

تحقير الدنيا دافعٌ إلى مكابدة ما يجترحه المرء في طلب الحق، وإلى تحمل ما يُشقيه في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالحق... أن تكون هذه الدنيا، التي الرضى بها والركون إليها، والإيثار إياها عناءٌ وثبار - آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(١)، "فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنّكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"(٢).

الدعوة إلى التزهيد مطية لتحقيق مشروع سياسي يطالب بالحق والعدل، ويحتسب جهْد الطالب في ميزان محاسبة الأعمال يوم القيامة.

لقد انتهج الواعظ نهجا حجاجيا يقوم على التأطير الوصفي السالب للدنيا ليذكر بحالها وبصنيعها، وما يجب على المرء عمله لئلا ينغمس فيها، وقد سلك قطري في التهوين من قيمة الدنيا سبيل إغداقها بكثير من الأوصاف القدحية تشنيعا لها سواء أكانت مثبتة أم منفية، "فإنها حلوة خضرة، حُفت بالشهوات وراقت بالقليل .... لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرارة، ضرارة، خوانة، غدارة، وحائلة زائلة، ونافدة بائدة، أكالة غوالة، بدّالة نقالة"(٣)، ولا يخفى خطر النعت القدحي على الموصوف في تنفير النفوس منه واستسماجها له، وتراكُمها في النص في صيغ صرفية موجبة دالة على المبالغة يسهم في إحجام النفس عن إدنائها وتعاطيها، ويوسع الهوة بين الموعوظ وقباحة الموصوف المخوّف منه (الدنيا) لا سيما إذا كانت مصطبغة بصبغة التحول والمكر، فهي لا تدوم على حالها وقبحُها من انتفاء دوام حسنها وتبدلها بالأسوأ، وكل

(١) خطبة عبد الله بن وهب الراسي، انظر: جمهرة خطب العرب: ٤٠٨/١ خطبة رقم ٣٠٧.

(٢) خطبة حرقوص بن زهير السعدي، انظر: جمهرة خطب العرب: ٤٠٩/١ خطبة رقم ٣٠٨ .

(٣) جمهرة خطب العرب: ٤٥٤/٢ خطبة رقم ٤٣٥.

ما يظهر منها جميل فهو منقطع وصائر إلى نقيضه "مع أن أمرأ لم يكن منها في تبرة، إلا أعقبته بعدها عبرة ..... وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمرّ عليه منها جانب وأوبى ...."(١).

إن الدعوى التي يسعى الواعظ إلى ترسيخها في وعي وذاكرة الموعوظ هي التقلل من الدنيا، وقد استعان بموضع حجاجي يرفد هذه الدعوى قائم على الكم يجمع بين القل والكثرة، يمكن أن نصوغه على الشكل الآتي:

ـ كلما تقلل المرء من الدنيا كلما استكثر الأمنَة منها.

ـ وكلما استكثر من الدنيا كلما استكثر لما يوبقه ويحزنه.

يرتبط التقلل بالدنيا أي بما هو ملموس وحي، ويرتبط الأمن بما هو معنوي في ذاته، بما هو روحي في نفسه، ولم يتجه الواعظ إلى ربط التقلل من الشيء بنتيجة من مثله يكون التقلل محورها كذلك، كأن يقول:

ـ كلما تقلّل المرء من الدنيا كلما قلّ خوفه.

وفي الحالة الثانية:

ـ كلما استكثر من الدنيا كلما قلّ أمنه.

ذلك لأن عين الواعظ منصبة على التقلل المفضي إلى التكثير، وهو بذلك يبتغي من الموضع تفخيم الكثرة سواء أتعلقت بكثرة الأمنَة أو بكثرة الأحزان والموبقات، وكثرتهما متعلقة بتقليل وتكثير، ومادام صلب الموعظة هو التزهد فإن ذلك يسوّغ مركزية التقلل في عرضه.

ويقوم الوصف السالب للدنيا على التقابل الضدي بين مكونيْ كل عبارة من ذلك قوله في الخطبة نفسها: " سلطانها دول، وعيشها رونق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رِمام، وقِطاعها سَلَع، حبها بعَرَض موت، وصحيحها بعرض

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/٤٥٥.

سُقم، ومنيعها بعرض اهتضام، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهلع المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل ﴿لِيَجزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجزِيَ ٱلَّذِينَ أَحسَنُواْ بِٱلحُسنَى﴾ (النجم:٣١)، ويكشف اعتماد هذه البنية الضدية عن جوهر الدنيا، وهو تقلبها إلى ضد ما أولته وأظهرته، حتى تصبح مستسمجة ولا أمان لها لمخالفتها تمثلات الناس عن الأشياء التي يرتبطون بها، على أساس أن ما ينتظره الناس مما ارتبطوا به وألفوه هو الثبات والطمأنينة.

وكل الأوصاف السالبة متعلقة بالدنيا والإنسان فيها حي يرزق، فكيف يهنأ بما هو عنه تارك، هنا سيشتغل الباتوس[(١)] في هذا المقطع اشتغالا قويا ونوعيا لكونه يخاطب في الإنسان عاطفة الخوف عبر آلية التذكير، وما دام الإنسان قد وعى أن الموت عاقبة كل حي، فقد كان في حاجة إلى تنشيط ذاكرته بمشهد الموت والقبر والفناء.

منطلق التخويف مؤسس على قاعدة التبدل وعدم البقاء على الأصل، فالنعم التي نعِم بها الأولون ظعنوا عنها وورثناها عنهم، وكذلك سنفعل ويُفعل بنا، فتبقى الدنيا الفانية بمعالمها الحية ويذهب المعمرون لها تباعا، وارتبط بالتخويف بمَن هلك قبلنا انقطاع النعم، وليس أسوأ على المتلذذ بشيء من انقطاعه، وأفظع من انقطاعه بقاؤه وهلاك مَن التذّ به، ولذلك عمد الخطيب إلى تصوير الهلكى الذين تهالكوا على الدنيا وعدّد من أجرت عليه مصاريف التغيير، ومن خبرها وخدعته "كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي اختيال فيها قد خدعته "[(٢)] ومع ذلك روّعتهم بالسكرات وبهوْل المطلع والوقوف بين يدي الله.

وليس يذهب لذة أكثر من ادكار المتلذذ بأنها انقلبت إليه بتحولها عن غيره، وكذلك يُفعل به، والذين نعموا بها قبلا ظعنوا عنها مكرهين ولم تحابهم الدنيا بشيء

---

(١) مكون من مكونات البلاغة القديمة بمفهومها الأرسطي، والذي يهتم بكل الوسائل التي من شأنها أن تحرك عاطفة المستمع وتشحنها.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/٤٥٥.

ولا حزنت لفراقهم، بل على الرغم من استعبادها لهم أذاقتهم الويلات والحسرات الكثيرات، ومع ذلك ظلوا لها مقبلين، وعليها متهافتين، فكيف يثق المرء بالدنيا ويرخي حبائل الود والارتياح نحوها؟، وكيف يُعقد عهد أحادي الجانب مع المتمرس على الخديعة والغدر؟ وكيف يُعقل أن يكون الحرص على الامتلاء من الدنيا وهي زائلة؟ يقول الواعظ: "أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، أم إليها تطمئنون؟ يقول الله جل ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلحَيَوٰةَ ٱلدُّنيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيهِم أَعمَٰلَهُم فِيهَا وَهُم فِيهَا لَا يُبخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيسَ لَهُم فِي ٱلأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِل مَّا كَانُواْ يَعمَلُونَ﴾ (هود: ١٥-١٦) فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها"[(١)].

إن التأطير الوصفي القدحي للدنيا ينتهي إلى هذا الاستفسار المشكل الذي يجعل الواعظ في حيرة من أمره إذا كان قد بيّن للناس حال الدنيا وزينتها البخسة، وقد تعزز هذا التبخيس بشاهد نصي قرآني يبئر مسألة فوات الآخرة حين يُتشدد الحرص على طلب الدنيا، وانتهى الواعظ إلى معادلة التعامل مع الدنيا.

وقد شكل هذا التعامل بالنسبة للخطبة أو لهذا الجزء منها النتيجةَ التي أصلّ لها الواعظ وابتغى أن يصل إليها الموعوظ، وهي أن تكون الدنيا محل اتهام، وأن يكون منها الإنسان على وجل، إن هذه النتيجة هي نفسها ما تحملها مقدمات الخطبة الواصفة، وهي تحمل حكما وموقفا، أما الحكم فهو اتهام الدنيا، وأما الوجل فهو الموقف الذي على الواعظ أن يلزم نفسه به ويلتزم به.

يدرك الواعظ أن مهمته مقصورة على التذكير وإنعاش ذاكرة مَن نسي، ذلك أن معرفة الناس بالدنيا هي من الأمور التي يكتسبها الإنسان في هذه الحياة، فهي معرفة مُعاينةٍ، تقترن بها معرفة معلّمة في النصوص الدينية لاسيّما النص القرآني الذي عرّى حقيقتها وكشف طبيعة معدنها، الشيء الذي جعل الواعظ يقف على نصوصه لتزكي طروحاته، وهكذا شكلت النصوص المقتبسة دعامة حجاجية وازنة تستمد قدرتها

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٥٥/٢.

التأثيرية من السلطة الصادرة عنها، ومن ثم كانت حجية نصوص الاقتباس زخما يثمن حجج الواعظ القائمة على الوصف والاستنتاج، وهو الأمر الذي استغله الواعظ نفسه ليجعل منها ليس فقط أداة احتجاج، بل موضوع عظة، يقول: واتعظوا فيها بالذين قالوا: "من أشدّ منا قوة ؟" وسيكون مدخلا مهما لتحريك عاطفة تحريك القبر، والقبر مكان استثارة عاطفية.

لقد سلك الواعظ في تخويفه عدة محطات أساس تشكل مجتمعة لبنة لإيقاع الإخافة في نفس الموعوظ، منها:

ـ التخويف بالموت:

فإذا كان الخوف من الموت أمرا مستبعدا لتعلق المخافة عادة بالأحداث المستقبلية الواردة، والموت من ضمنها، فإن الانشغال بالحياة وحسن الظن بها يُنحّي الموت من توقعاتنا ويدفعه بعيدا خاصة وأن خوف الإنسان متعلق بالمحسوسات وليس بالمجردات، ويُنتظر من التخويف بالموت أن يسلب المنعَم عليه نعمة الفرح والتنعم بما نعِم، فالموت يفضح الدنيا ويكشف سوأتها ويُذهب لذة التمتع بها.

ـ التخويف بالقبر:

والقبر مقام معلوم تنشأ عنه عواطف شتى تفعل أفاعيلها في ذات الموعوظ، حتى يسلّم ويذعن، وتنشط هذه العواطف إذا لازمها الإلحاح على عاطفة الحرمان من كل شيء والتصوير المادي لتغير ذات الإنسان وتحللها.

وليس أوقع على النفس من متعة منصرفة يعقبها استبدال مقام عليّ بمقام دنيّ في جوف الأرض فتلازمهم الهدأة والسكون ويزول ما كان عنهم من حركة ونشاط أو تحصيل منفعة أو لحوق ضرر، وتنقطع الصلة بينهم والاجتماع: "حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الصريح أكنان،

ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعيا ولا يمنعون ضيما.... جمع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متناؤون لا يزورون ولا يزارون .... "[١].

فلا يكتفي الخطيب بالتذكير بالموت عاقبة المحيا في الدنيا، بل إنه يمعن في تصوير مشهد المقام الجديد وما يعتوره من انتفاء الحركة والإحساس والنفع والضرّ وزوال العلاقات الاجتماعية.

ويوغل في الضرب على حبل الغربة والتوحد والظلمة المدلهمة في القبر، وفراق الأهل والدنيا فخرجوا منها كما دخلوها حفاة عراة، ولكن بفارق الحِمل الذي ناءت بها أعناقهم من العمل المكتسب في الدنيا: "استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، ففارقوها كما دخلوها، حفاة، عراة فرادى، غير أنهم ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، وإلى خلود الأبد"[٢]

وليس أخوف على الإنسان من تصوير المقام في القبر كيف هو، ومقابلته بما انتفى من الدنيا من أمور ماتعة، ما يُعد فيها حاجات طبيعية ومكاسب كالنور والكساء والحركة والإحساس وتحصيل المنفعة والتزاور وملازمة الأهل والاجتماع، يُحرم منها في القبر، والحرمان يرهب النفس فترعوي، ويشغلها عن متع الدنيا الزائلة التي لا تحمد.

التصوير هنا وسيلة فعالة في كبح جماح النفس وإبطال دعاويها في الحياة، فالإغواء والاستمالة يقوضهما الحرمان والعدْم، والتصوير الحسي الذي ركن إليه الخطيب والذي لم يتجاوز نقل ما تراه العين مشحونٌ بعواطف ذات وترٍ حساس يستهوي، وهو تصوير يتجاوز التعليم والمعرفة إلى استثارة العاطفة وتحفيزها من خلال الاستحضار الفعال والمجسد لمشهد القبر، حيث يحضر تصوير متحرك لما هو ثابت، ومشاهد التصوير تتناسب وموضوع الموت بصفته خاتمة الحياة الدنيا كيفما كانت

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٥٨.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٥٨.

طبيعتها حلوة أو مُرة، كما أنه يتناسب من جهة أخرى وجنس الخطاب الوعظي بصفته يقوم على التنفير من الدنيا وتحقير الحياة إذا كانت نهايتها موتا.

ـ التخويف بمصائر الأمم السابقة، وبمَن ملَك وهلَك:

يأخذ التخويف مبلغه حين يجعل الواعظ الموعوظ يحس بالألم حين يذكره بالفقد الذي يسري على جميع العباد، البسطاء والأقوياء، فيسوّي بينهم الموت تسوية جوهر لا تنظر إلى الأعراض التي تزايلوها وتنافسوا عليها، يقول الواعظ: ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارا، وأوضح منكم آثارا، وأعد عديدا، وأكثف جنودا، وأعتد عتادا، وأطول عمادا، تُعبِّدوا للدنيا أيّ تعبد، وآثروها أي إيثار، وظعنوا عنها بالكره والصغار، فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطْب؟"، ويُحمل التخويف بالموت على ما بعده، أي مخافة العقاب وخاتمة الجزاء، وهو الأمر الذي أثبته الواعظ أكثر من مرة إما بمقوله أو بمنقوله.

آلية إحداث التخويف تمثلٌ واستحضار في كل ما سبق، فتمثل الموعوظ الحدسي للموقف ولمشهد الموت وما بعده، يقتضي مروره إلى حالة من التجربة الذهنية تجعله مفعولا في ذلك المشهد حاضرا بكتلة أحاسيسه ودواخله، نزاعا إلى كشف الفوارق بين ما كان والذي صُيّر إليه، يقويه يقينه من التجربة المفترضة ـ والتي لا محالة سيعيشها ـ ويهوله الفقد والشعور بالخور واللاحول، ويألمه أنه وحده.

ولم يكن التخويف مبدأ سيكولوجيا يوخز به الواعظ ولا جذبا عاطفيا يتقصده هكذا، بل هو مطلب تخييلي ذو غاية تأثيرية تبتغي إلانة القلوب وترويضها على تحقير الدنيا والاستكثار من الطاعة المؤهلة لدخول الجنة.

وقد امتد أثر التصوير إلى إحداث الفزع والتهيّب من هذا المقام الجديد الحائل عن مقام النِعم والرفه (إقناع عاطفي)، فيدفعها إلى العمل والترك، العملِ بالمأمور وتركِ المحظور "فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله"[(١)].

(١) جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٥٨.

وهذه الدعوة المباشرة كانت ختام الموعظة وما قبلها محاجة تبتغي التذكير والتخويف الزاجر، تسفيهاً للدنيا وحطّا من قيمتها، من خلال إحداث تصور يتبناه المستمَع حول حقيقة الدنيا، ويعقب هذا التعديل التصوري تعديل في السعي والعمل، إعلاءً للزهادة لما كان الموصوف (الدنيا) غير حقيق بالإيثار والحرص والاطمئنان إليه، وكان في الإقلال منه أمَنة وكان الخير كله في التقوى.

لقد غاب عن هذه الموعظة المذكرة الترغيب بصفته الجناح الثاني المكمل لكل دعوة مستقيمة، ذلك أن الواعظ رأى أن الوعظ هو التخويف الزاجر لكل نفس متعلقة بأهداب الدنيا، وهذا الأمر يستجيب لطبيعة تدين الخوارج القائمة على التزهد والتقلل من الدنيا، والذي بدوره يعتبر محركا ودافعا أساسا لتشكل رِؤيتهم للعالم، سواء أتعلق الأمر بتصور الدنيا أم بتصور طبيعة الحياة فيها أم بنظام الحكم وحقيقة تأويل النصوص الدينية نفسها.

بالجملة يمكن أن نقر أن هذه الموعظة تذكير وتخويف، تذكير بحقيقة الدنيا وتخويف من التعلق بها، وهي في الوقت نفسه تبني تصورا، لانشك في سلامته، ولكن حيد به عن مقصده، ويمكن أن نعد التأطير الوصفي هو الآلية المهيمنة التي اعتمدها الواعظ للتذكير بحقيقة الدنيا، ويجاوره اعتماد التقابل بصفته بنية ضدية ترصد مواطن الذم وتقدح فيها، إلى جانب تحريك عاطفة التخويف التي يتقصدها الواعظ لإيقاع الرهبة في النفوس لتستجيب إلى ما يقربها من بلوغ الآخرة تبعا لمقدار منسوب الخوف المستثار فيها، وقد ركن الواعظ إلى إدراج نصوص حجج السلطة لتضفي شرعية تأويلية على النتائج الصريحة التي ذكرها الواعظ: مخافة الموت وما بعده سبب لتحقير الدنيا والوجل منها، وقد وزع الواعظ الشاهد القرآني في الخطبة حسب مساقات القول بصفته سلطة محكمة هي محط قبول وإجماع جمهور المتلقين، واستعلاءُ سلطته يكسب المحاجة إذعان الجمهور والتسليم لما حوته من أحكام، ومن ثم شكل دعامة ودعما يلجأ إليه الواعظ ليدفع الشك والريبة التي قد تمس الأفكار التي يطرحها أو الحجج التي يسوقها.

وبالنظر إلى مناسبة الخطبة يتضح أن الوعظية تتجه نحو السير بالمخاطب إلى الاعتقاد بتطابق صورة المرأة المسبية بصورة الدنيا البائدة، وإن كانت الصورة الأولى جزءا من الكل (الصورة الثانية)، وأن ما يترتب على الكل يلحق الجزء بالضرورة، وفي ذلك تهوينٌ لفعل القتل غير العادل الذي لحق المسبية وتسويغ لمشروعيته "خلوا عنه، عين من عيون الله أصابتها"(١)، وإخلاء وإبراء لذمة القاتل بذريعة إخماد الفتنة، فتنة التنافس على المرأة / الدنيا.

ولا ندري إذا كان هذا هو حال الزهاد من الخوارج، فما بال غيرهم كيف يصنعون أمام فتنة النساء، وهل تسويغ محاربة الفتنة يحلّل القتل؟

تهافت حجاج المغالطة: انزلاق وإيهام

القتل بغير حق جريمة يُعاقب عليها بمثلها، والخوارج لما انتقدوا الحكام رفعوا شعار العدل الاجتماعي والقسمة بالسوّية، والنصّف في الحقوق من جملة العدل بمفهومه العام، ولما كان السلطان الذي يقضي ويحكم مفترضا فيه ردّ المظالم وإحقاق الحق(وهو هنا زعيم الجماعة الخارجة عن الحكام الظلمة الفاسقين) كان لزاما عليه أن يعدل بدل أن يبرر القتل الظالم، وقد تحقق له التبرير حين سوّى بين المرأة والفتنة (هذه التسوية ظاهرة عند القاتل ومستنبطة عند الحاكم)، والفتنة نائمة ملعون من أيقظها، وفتنة المرأة التنافس عليها، وإذا كان من غير المقدور عليه حسب تصور القاتل الإجهاز على الأصحاب المفتونين، فالأولى التغلب على الحلقة الضعيفة / المرأة.

هذه التخريجة للقتل مفهومة الأبعاد وواضحة الدلالات لكونها تبتغي صون الذات بقتل الموضوع غير أنها تخلط القضايا: موضوع الفتنة (المرأة) وقضية الافتتان، القضية الثانية قضية ذات مرجعية ذاتية تقع المسؤولية والمحاسبة فيها على الذات وليس على الموضوع الخارجي، ثم إن فيها صرفا للنظر عمن تقع عليه المسؤولية: مسؤولية

---

(١) من كلام قطري بن الفجأة، ورد على هامش خطبته تحت رقم ٤٣٥ في جمهرة خطب العرب: ٤٥٤/٢.

الافتتان أولا والإجرام ثانيا، من خلال إلباسها مظهرا غيبيا ليس دونه مبررات مشروعة شرعا أو عقلا أوعرفا، تجيز القتل وتعفي القاتل من المحاكمة وتسكت عن المساءلة.

وهذه آلية من آليات التهافت الحجاجي المغالِط إذ يتقصد تزييف الحقائق بخلط القضايا وتفاصيلها مستعينا بتخريجات ميتافيزيقية مشوشة (عين أصابتها) إيهاما بصواب التأويل وصدق التحقيق فيتحرّج المستمِع ويتم تغليطه وتضليله بالانزلاق من سياق إلى آخر، إذ بين مناسبة الخطبة وقولها انزلاق من قضية القتل/ الفتنة وتوابعها إلى قباحة الدنيا والتزهيد فيها، انزلاق من الجزء إلى الكل لتحقيق مماثلة بين عناصر الصورة المكونة وصولا إلى نتيجة موحدة جامعة وهي القتل: قتل مادي للفتنة / المرأة، وقتل معنوي للدنيا أو هكذا ينبغي أن يكون الفعل المنشود.

تجميع:

خطبة قطري عموما وعظ إطلاق يحذر من الدنيا ومَكْرها يسعى من خلاله إلى إحداث إقناع انفعالي قائم على تكريه الشيء أو تحبيبه عبر الرفع والحط من قيمته، يذكرنا بخطب الصحابة والتابعين، وتخلو من أي أثر شاهدٍ على المذهب والاعتقاد، لذلك نسبت لأكثر من أحد، أما العظات الأوائل فهي تربط الوعظ بعقيدة المذهب ربطا يستثمر مرتكزات دينية تنبني عليها مواقف سياسية، وفي تقاطعها ينشأ الوعظ المذهبي الذي يختزل الهوية السياسية من منطلق عقيدي في خطاب يرجح من كفة الأنا الجامعة وينفخ فيها نفخات من التعالي والتسامي الذي يوحدها أولا ويعظمها ثانيا، وهذا ما جعل الخطباء يستثمرون الوعظ في وصف الذات السياسية بصفتها عصبة مثالية تستحق المدح والثناء يهُون أمامها الموت، إذ من خلاله تُقصّر الزمن، وتسرع في اللحاق بالله متوّجة بالشهادة أو بالنصر من غير أن يترك حزنا أو ألما على النفس، وغدا الموت عند الخوارج غاية لها ما بعدها، فهو لا يطلب لكونه مفارقة للحياة، بل هو قرين انتقال طاهرٍ إلى عالم سرمدي تنال فيه المطالب ويحقق العدل، فهو بالإجمال أمل في الحياة.

وليس أدل على تفخيم هذه الذات من خطبة أبي حمزة الشاري(١) في مدح جماعته واستمالتها بعد أن بلغه تعتيب أهل المدينة لأصحابه مفرغا عليها(الذات) صفات الزهادة وطول العبادة وحسن النسك والثبات في المواجهة والإقدام عليها مقبلين في غير تهيب، وهي أوصاف تأخذ بنصيب كبير من الدين، وكأنها علامة فارقة مائزة لهذه الجماعة عن غيرها، وبذلك تكتسب السياسة دافعيتها الدينامية من الدين وكيفية معالجة نصوصه فهما وتأويلا.

يلتقي الوعظ بالسياسة في كونهما معا يسعيان إلى إيقاع التأثير والدفع إلى العمل، لذلك كان الوعظ مسخّرا للسياسة يرفدها ويخدمها لتأدية أدوارها، ويقوم بوظيفة تأطيرية ذات بعد عاطفي يقوّي الانتماء الحزبي ويعزز الرابطة المذهبية.

والخطاب السياسي في مسيس الحاجة إلى ما يخلع على مرسله ورسالته صفتي الصدق والمصداقية، وينشط الوعظ لأداء هذه الوظيفة، إذ إنه يرسم عن الخطيب صورة مثلى تجعله موضوع قبول ورضى، والصورة التي ينسجها عن نفسه من خلال وعظه تُزكيه وترفع مستوى الثقة فيه، فيثق الموعوظ في الواعظ من خلال ما يبثه هذا الأخير من عظات تجعل أقواله وكأنها منسوخة عن أفعاله، وحين تتطابق أقوال الواعظ وأفعاله، يصدق قولُه فعاله فيحظى بتأثير قوي وفعالية مثمرة تسهم في الرفع من درجة تسليم الموعوظ وتيقُّنه وتحمله على الاقتناع.

وما يقر في خلد المتلقي هي صورة أنموذج عن الانسان المثال تتجاوز مستواها الحسي لتقارب الرمزية الدلالية للأنموذج، وهي صورة تتقاسمها جميع الفرق الإسلامية لنمطيتها في الوجدان الإسلامي رغم صعوبة ترسيخها في عالم الواقع، وثبات هذه الصورة المطبوعة في النسق الفكري والوجداني، صورة الذات الزاهدة المتعبدة المنسلخة عن الدنيا، ألجأ الوعاظ إلى ترديدها كثيرا وإن كانت بصور متباينة ولكنها مكرورة في جوهرها ومتشابهة لاستدعائها نسقا فكريا يفهم الكون ويفسره وفق رؤية عقيدية موحدة تجعل الدنيا معْبرا للآخرة.

(١) خطبة رقم ٤٦٩، جمهرة خطب العرب: ٤٦٩/٢ وما بعدها.

حضور المعتقد المذهبي والدعوة له في الخطاب السياسي يكشف أن بنية الخطاب اللغوي متأثرة بالبنية الاجتماعية وبالموقف الإيديولوجي، ذلك أن الاختيار اللغوي لأوصاف قدحية موجهة للآخر تنبئ عن يقين اعتقادي يُخرج الآخر المخالف من دائرة الجماعة الاجتماعية المتوافقة والمتناغمة على مستوى المعتقد الاجتماعي، وهذا الأمر يصدق على الخوارج في علاقتهم بخطابهم كما يصدق على خُطاب الأغلبية وخطابها.

وقد كانت الأوصاف سواء تعلق الأمر بالوصف المدحي والإيجابي للأفراد المنتمين للجماعة كما رأينا عند أبي حمزة الشاري أو بالوصف السلبي للآخر المارق من الجماعة كما في الخطب الأخرى، من أهم خصائص الخطاب المرتبطة بالتعبير عن السلطة الاجتماعية.

ويفرض التحيز المذهبي والسياسي على الخطيب اعتماد سياسة الاستقطاب في شكل ثنائية ضدية: نحن / هم، أي مديح من هم معنا والحط من أقدار من هم خارج جماعتنا، وكان الركون إلى الوعظ المقحم في السياسة لينجز دور الفرش الأولي والمحضن الختامي وما يقع بين ثناياه يكون مرتفع درجات الصدق والنزاهة.

الخطابة السياسية في طبيعتها استشارية أو مشورية روحها التحاور في قضايا تدبير الشأن العام وهي لذلك تدور في دائرة الممكن والمتاح، غير أن التباسها بالوعظ إطارا مضمنا في ثناياها حمّلها من أوصافه ما جعلها تخرج من دائرة التشاور إلى الترغيب والترهيب ومنحها من صفة التعالي والمطلق المائزيْن له وما رافق ذلك من تفخيم الذات واستشعار العظمة فحوّلها من هوس سيكولوجي إلى عقيدة إيديولوجية غاب عنها النضج العقلي واستجابت لتسلط جائر ومحكم ينزع بها إلى أحادية الرأي المفارق للنسبية والاحتمال.

إن تسخير الوعظ في الخطاب السياسي يضفي على الخطاب وثوقية مطلقة لأنه ينهل من الدين المتعالي، فيلامس بخطابه هذا المرقى ليقارب المطلق وادعاء امتلاك الحقيقة فيتم تنزيه الذات وتشرئب إلى معانقة صفة ملائكية تشيطن الآخر وتشنع عليه، وكلما فعل ذلك خرج من دائرة الوعظ، وجاوز آلية الحوار وارتمى في بؤرة العنف

واللاتسامح، ويشهد على هذا الالتباس ونتائجه مآلات الصراع السياسي في الفتنة وما بعدها، إذ حل محل المشاورة التنابذ بالسيف حتى تصفية المخالف أو إرضاخه لمقولة الطرف المتغلب، مما جعل الخطابة السياسية نتاج تناحر وليس ثمرة تشاور.

وعظ الحاكم: حكم بني أمية

وإذا ثبت استغلال القصاص والوعاظ الوعظ وسيلة للدعوة للمذهب السياسي ولتحميس الأتباع والجنود ضد الطرف المناهض، فكانت خطب خطباء الأحزاب السياسية ثم خطب خطباء الثورات حبلى بالمواعظ، فإن في بعضها الآخر نعدم صدور المواعظ عنه مما طالعناه كخطب الزبيريين فهي في مجملها خطب منافرة ومفاخرة بين بني أسد وبين بني عبد مناف وبني أمية عمادها استطالة الحسب والنسب، كما أننا نلفي خفوت صوت الوعظ عند الشيعة للإحساس بالمظلومية والميل إلى القصاص والانتصار للمظلومين والدفاع عن عليّ حين يُنتقص منه، بينما ارتفع صوت الوعظ عند حكام بني أمية وولاتهم لجمعهم بين الإمامة الدينية والولاية السياسية.

الحجّاج واعظا: أو حينما يُخترم الإيتوس:

الحجاج بن يوسف الثقفي واحد من ولاة بني أمية حكم بالحديد والنار، ورغم الصورة البشعة المنطبعة حوله في أذهان الناس بصفته رجلَ فتكٍ ودم، كان صاحب لطائف وعظية تقذ أبهرت نُساك وزهاد تلك المرحلة لتضمُنها معاني ومسالك غير مسبوقة.

وقبل الخوض في مواعظه نسجل أن ما لاحظناه عن خطب بني أمية الوعظية هو خلوها من الأدلجة السياسية وانحسارها في معاني الدين دون تأوّل سياسي أو اعتساف مؤدلج، ولا فرق بينها وبين خطب الزهاد والنساك والصحابة والتابعين عامة، فلا صدى للخلاف السياسي بين الأمويين وباقي الأحزاب السياسية المناوئة، ولا صدى للطعون التي رموا بها مخالفيهم، ولا صدى كذلك للمبررات التي استدلوا بها على أحقيتهم في الحكم.

وفي مواعظه يلح الحجاج على قيادة المرء لنفسه لا انقياده لها، واقتيادُها يكون بخطام يقودها إلى طاعة الله وبزمام يعطفها عن معصية الله، وهذا التصوير البلاغي مستوحى من طبيعة البيئة الثقافية القائمة، إذ قيادة النفس كقيادة الجَمل في حاجةٍ لخطام وزمام يُسهل المسير، يقول: "امرؤ أخذ بعنان قلبه، كما يأخذ الرجل بخطام جمَله"[(١)]، ويقول: "فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وعطفها بزمامها عن معصية الله"[(٢)].

ويستدعي هذا التصوير مطلبا كان يلح عليه الحجاج في تدبير شؤون السياسة يتمحور في كون الوازع الذاتي هو المتحكمَ في سلوكات المرء، وهو وازع يعي الحدود والحمى، ويُهادن بالطاعة ويفارق المعصية، حتى إذا ما تم تفعيله فستكون العافية وحسن السلامة هي الجزاء، وأما إذا كان التمرد والعصيان هو الغالب فسيكون العقاب من جنس الفعل وأشدّ، وقابل تشديدُه على الاستقامة، تشديدَه على الجزاء: جنة أو جحيم، مساكنة أو إهلاك، وماثلت طبيعة جزاء الاستقامة في الدنيا الفانية جزاء الآخرة الباقية.

وهوّن من أمر الدنيا لأن خصيصتها الفناء، وعظم من شأن الآخرة لأن البقاء ميزتها "فلا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء"[(٣)].

وإذا كان زوال الدنيا حتمًا والموت واقعًا فلا بُد للإعداد للآخرة محل الحساب والنوال والعقاب، ولذلك بخّس من قيمة الجبابرة الهلكى، وثمّن بقاء ملكوت الله مجسّدا في الشمس التي طلعت عليهم وهم أحياء ثم هم أموات "هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة، وخزائنهم السائرة بين أيديهم، وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم، أين الملوك الأولون، أين الجبابرة المتكبرون؟"[(٤)].

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٣٠٢/٢، خطبة رقم ٢٩٠.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٣٠٢/٢، خطبة رقم ٢٩١.

(٣) جمهرة خطب العرب: ٣٠٣/٢، خطبة ٢٩٣.

(٤) جمهرة خطب العرب: ٣٠١/٢، خطبة رقم ٢٨٩.

ومضامين وعظ الحجاج متداولة يمكن حصرها في:

ـ العمر يسير نحو الأفول والأعمالُ تحفظ.

ـ الموت حتم، فكان الإعداد للآخرة أوجب.

ـ زوال الدنيا: هلاك الجبابرة والخلائق، وبقاء ملكوت الله مجسدا في الشمس.

ـ قصر الأجل يوجب تقصير الأمل.

ـ الحساب والجزاء والجنة والنار.

ـ قيادة النفس وضبطها.

ولا نزعم أن رؤيته السياسية انبثاقٌ عن رؤية دينية صرف، فذاك مطلب لا نتقصد الإفاضة فيه الآن، وهو إلى التقصي واستفراغ المسألة أحوج، لكن راعنا تماثلُ مفهوم الاستقامة أو قوَد النفس كقوَد الجمل، ومفهوم الجزاء والعقاب في الدين والسياسة، لكونه يحيل على طبيعة تكوّن شخصية الواعظ الثقافية، وعلى جملة من الإسقاطات التي تقيس بين عالميْ الدنيا (الحاكم مفوّضٌ يجازي ويعاقب) وبين عالم الآخرة حيث الجزاء والعقاب، وقدَر المحكوم أن يختار قود نفسه واستقامتها وفق المطلوب والمشروع.

لكن هناك مفارقة جوهرية مرصودة بين القول الوعظي وبين الممارسة المأتية في الواقع، اللسان يُزّكي الذكر، واليد تخالف، والقلب لا يتعظ، فهل الموعظة برتوكول سياسي لإشباع رغبات العامة وإصباغ متكلّمها بمواصفات الزهادة مما يندرج في إطار صناعة الحاكم الشكلية وَفق استيهامات المتخيّل الشعبي؟ الشيء الذي ينزع عن الموعظة صفة الصدق التي تضمن القبول عند المخاطب وتحْمله على الفعل والكف، وتلقي بصاحبها في دائرة النفاق الاجتماعي المتزّي بقناع الدين لتحقيق مرام سياسية محضة.

وتسلب مخالفةُ القول الفعلَ عن الواعظ إيقاع الإقناع المرتجى إحداثه في الموعوظ: إلانةً وتذكيرًا، لعطب يلحق شخص الواعظ وعمله وصورته المتراكبة من سيئات أفعاله عند الجمهور.

وهي صورة لا تلتئم مكوناتها التأثيرية لحدوث شرخٍ قوي فيما تقدمه من دلالات غير منسجمة لتعذر تطابق ما يختزنه ذهن المتلقي من أفعال عنها، وبين طنين الكلمات المفوهة الصادرة عنها، وليس في وُسع المرء أن تخدعه الكلمات إذا كانت الحقائق المُعاينة شاهدة على خلاف ذلك، والأفعال تحظى بالتصديق على الأقوال.

وتكشف ازدواجية الأدوار المتعارضة التي كانت تؤديها شخصية الحجاج عن انفصام مأزوم بين الخطاب والمنجز، بين لغةٍ خطابية وعظية تؤدي وظيفة تاريخية تشير لاتباع السلف في النسق الخطابي المعهود والمتداول، لتضمن لها مشروعية خطابية وامتدادا تاريخيا، وتجعل مناط الجزاء والعقاب مسؤولية فردية، على الرغم من كونها أي اللغة الخطابية تصير معوّقا لها في الممارسة السياسية العملية لتصادم البنية الخطابية بمسْلك الأفعال.

وهذا ما جعل انطباع المتلقين هو التعجب من معاينة هذا التصدع بين الخطاب والمِراس، يقول الحسن البصري: "ألا تعجبون من هذا الفاجر؟ يرقى عتبات المنبر، فيتكلم بكلام الأنبياء، وينزل فيفتك فتك الجبارين، يوافق الله في قوله، ويخالفه في فعله"(١)

اعتراض الحسن البصري اعتراض منهجي وليس مضمونيًا، اعتراض للإيتوس وعمله لكونه خرق منظومة المتعارف عليه وبنية الحس المشترك الذي يجعل الحجج تالية لأعمال الواعظ.

فالواعظ يستمد سلطته التأثيرية من شخصه، من وضعه الاجتماعي والواقعي وسيرته التاريخية لإحداث الأثر في المستمَع، وهو هنا يغفل محصلة التمثلات

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١/ ٢٥٠، نقلا عن جمهرة خطب العرب: ٢٨٩/٢.

الإدراكية الجماعية البانية للمواقف والرؤى والتي تُسفِّه وعظ الجبار، إذ لايقبل الوعي الجمعي من خلال ماراكمه من تصورات عن الواعظ (من التاريخ ومن دلالة الوعظ المعجمية) أن يكون في مقام الغلظة والصفاقة، والبدهي أن يكون موقعه موقع اللين والرحمة ودوره دور تهذيب وتذكير وليس فعل الإجرام.

ـ حجة السلطة واستراتيجية أدهمينون:

إننا هنا أمام موقف بلاغي تُقارَع فيه حجة السلطة من مقارعة أقوال الشخص بأفعاله؛ إذ إن بين حجة أدهمينون وحجة السلطة صلة بيّنة إذ يأخذ كل نوع سمة من سمات الشخص الذي يقدم الحجة بصفتها ذات صلة بقبول الاستنتاج من عدمه.

ويفترض في حجة أدهيمنون أن تعمل من خلال ربط شيء سلبي حول المحاجج بالحجة، بينما يفترض في حجج السلطة أن تعمل بطريقة مخالفة لعمل الأولى.

وهذا التفاعل بين هذه الأنواع من الحجج أمر مهم، لأنه يقترح طريقة مناسبة للرد على كل منهما، وهذا يعني أن الحسن البصري نظر إلى استراتيجية أدهيمنون للرد على حجة السلطة التي انطلق منها الحجّاج في وعظه، ما جعل حجة أدهيمنون مجرد مغالطة مستفزة.

حينما تُتهم حجة سلطة بالنفاق (الحجّاج) يجعلها ذلك هدفا للهجوم لأنهم إما: "١). يعبرون عن عدم الرضى إزاء بعض الممارسات هم أنفسهم منخرطون فيها، أو ٢). يعبرون عن الرضى إزاء بعض الممارسات التي هم أنفسهم لا ينخرطون فيها"[(١)]، وقد يكون الحجّاج من الصنف الثاني.

وتنشط حجة استدعاء النفاق Tu Quoque عند عدم موافقة العمل القول، وقد حدد أحد الباحثين خطاطة راصدة لعملها كما يأتي:

(١). س يؤكد ق في سياق م١ و س يقبل لاق في سياق م٢.[(٢)]

(1) STEVE MATTHEWS: Attacking Authority, p7.

(2) STEVE MATTHEWS: Attacking Authority, p7.

الحسن البصري استخدم استراتيجية استدعاء النفاق Tu quoque لتقويض حجة سلطة، فازدادت قوتها تناسبيا مع تأثير انكماشي على أمر ذي حجية يتمثل في صدق القول، ولذلك فالاستعانة بحجة السلطة يترك أثرا وفرقا مهما إذا كانت صادرة عمّن يكون صيدا سهلا لهجمات استراتيجية استدعاء النفاق.

ومن هنا نتساءل هل ممارسة الحجّاج للوعظ أمر مشروع بالنظر إلى أفعاله؟ صحيح أن الإمامة خولت له اعتلاء المنبر وصحيح أن سلطته هذه سلطة مهيْمنة، لا يمكن ردها، مكنته من النفاذ إلى الخطاب العام، لكن هل هذه الشرعية السياسية تشرّع له الوعظ وتجيزه بالنظر إلى الصورة الذهنية المختطة عنه أو إن المهيمن يسهل عليه ركوب الازدواجية؟

عظمة المضمون الوعظي ووجاهته ليست محل اعتراض كما ذكرنا، ولكن الاعتراض منصب على دعوى معارضة القول العملَ، أي أنه اعتراض المغلوب على أمره على الغالب المهيمن لغياب التناسق والانسجام المفترضيْن بين الواعظ ووعظه.

والحجّاج ممثل للجماعة المهيمنة وسيرته سيئة لاتجعل منه أهلاً للوعظ للشرط الآنف الذكر، ومن ثم فمن عواقب إنتاج هذا الخطاب أنه خطاب فاقد للشرعية(١) والأهلية، ولن تبرح كلماته آذان متلقيه، ولذلك يفقد تأثيره وتذبل فعاليته ونجاعته المرجوة في تحقيق تسليم الموعوظ لأن الأولى بالتذكر والإنابة هو الواعظ نفسه، وهذا مصدر فشل فعل المحاجة فيه.

ثم إن هذا الخطاب مثقل بالمفارقة التي تجعل منه محط عُجب وسخرية خبيثة ليس لما ضمّنه من محتوى رصين ومُفحم ولكن لصدوره عن واعظ لم يتعظ بعد "وقد قال الغزالي في إحدى رسائله أما الوعظ فلست أهلا له، لأن الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ، ومن لانصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به غيره، ومتى يستفح الظل والعود أعوج وقد أوحى الله إلى عيسى بن مريم عليه السلام: عظ نفسك

(١) شرعية الوعظ بالنظر إلى عدم أهلية الواعظ لإنجازه وما يترتب على ذلك من عواقب.

فإن تعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تركت فيكم واعظين ناطق وصامت: فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت وفيهما كفاية لكل متعظ، ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره"(١).

وهذه التأويلات غير المحببة لرجالات السلطة تعد وجها من وجوه مقاومة النفاق الأخلاقي وازدواجية المعايير.

وتتحدد فاعلية الفرد في الاستجابة لمضامين الوعظ انطلاقا من معطيات خارجية وأخرى داخلية، ولأن ذاكرة المجتمع غير مخرومة وليست متداعية للنسيان، فإن إنتاج خطاب وعظي غير متسق الأبعاد يجترح التذكير والرقة يغدو مصدر حرج لقائله ويلزمه بالبدء بنفسه وتصير الأغراض المنشودة له ذات مفعول عكسي مكرسةَ لظلم اجتماعي ممارس ولهيمنة غالبة لكونه أولا يسهم في بناء صورة معتلة عن الوعظ ويرسخ للنفاق ثم إنه يشوه ما تخزنه الذاكرة من صور صفاء الوعظ وكماله بتكامل مطابقة القول العمل. وعليه يعمد المتأثر بهذه المقامية المتعثرة إلى بناء إيديولوجيات وقناعات جديدة ومكتسبة مُجانبة للمألوف والطبيعي. بعبارة أخرى إن هذا الخطاب يلحق الضرر بالتمثلات الاجتماعية للمتلقين له.

ويؤخذ مفهوم الهيمنة بصفته "يتضمن البعد السلبي لكلمة الإساءة، فضلا عن معان أخر كالغبن والظلم والجور وعدم المساواة، أي أنماط الأعمال والمواقف غير الشرعية جميعا"(٢)، وعليه يصير الوعظ هنا وجها من وجوه سوء استغلال الخطاب وعلامة مائزة عن سلطة تسيطر وتتحكم في أفعال الآخرين، لكنها تسيء استغلال هذه السلطة مما يفقدها المشروعية الخطابية، لأن "التعسف في توظيف السلطة أو سوء توظيفها هو استخدام غير مشروع لها(٣)، غير أن الذي أجاز للحجّاج بصفته ممثلا للسلطة ممارسة

(١) الخطابة أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب: ٢٢٩ و٢٣٠.

(٢) الخطاب والسلطة:٦٠.

(٣) الخطاب والسلطة: ٦١.

الوعظ وأمكنه من ممارسة السلطة الاجتماعية كذلك هو الخطاب نفسه، أي القدرة على إنتاجه وفق قواعده التعبيرية.

وخطب الحجاج من هذا القبيل هي الوجه الآخر لخطاب السلطة المهيمنة بانتمائها إلى الخطاب اللّين الناعم أداءً وفعلاً، فالواعظ لا يهمه تنزيل وعظه في الواقع الاجتماعي ولا مدى إقبال الموعوظ عليه في سلوكه العادي بقدْر ما يهتم بطواعيته للسائس له في أموره الدنيوية.

كما أن خطب الحجاج تظهر من جانبٍ القادر على النفاذ فعليا إلى المنبر، وتكشف في المقابل عن المحروم من اعتلائه، ذاك المُصادَر من تمرير خطابه وإن كان وعظيا صرفًا، ذلك أن المقول يلتبس بقائله وإن كان محايدا، وحياده وعدم ولائه يجعل منه طرفا خارج الجماعة المسيطرة، ولا يقبل منه إلا الحياد الإيجابي كحياد الحسن البصري وغيره.

خاتمة:

تظل السياسة دوما في حاجة إلى غطاء يرفع من منسوب الصدق ليحضى الخطاب بالمقبولية والرواج الإيجابي، ويتكفل الوعظ بتهذيب النفوس وإعدادها لهذا الأمر، إلى جانب كونه يصير في بعض الأحايين حجة سلطة مزكية للخطاب السياسي، وتعود تزكيته إلى كونه يتضمن أقوالا هي نفسها حجج سلطة، وإلى كون السياسي نفسه يخلع على ذاته، ما أفاء له به خطاب الوعظ، من سلطٍ، فيصبح الخطيب سياسيا وواعظا، أو واعظا وسياسيا، أوهما معا في ذاته بمنزلة سواء، وهذا ما لمسناه في خطب الخوارج الداعية إلى الزهد وطلب الشهادة في مواجهة المخالفين.

تداخل الوعظ بالسياسة من تداخل الدين بالدنيا بصفة عامة، وإيجاد أرضية مشتركة لإيقاع التأثير من مهمات السياسي المحنك، والأرضية الصلبة التي تشكل موضع اتفاق معتبر هي تلك التي تجعل فرشها الدين، وإن تعددت تأويلات نصوصه.

تضمين الوعظ في الخطاب السياسي في شكل وصيةٍ توليفةٌ دعوية تجمع بين الدعوة الدينية والدعوى السياسية، حيث تُصرف الأولى إلى جهة تثبيت خطاب السياسة بمكنة الدين والإيصاء الوعظي، ويُفرغ من جهة أخرى على الدعاوي السياسية من يقينيات الدين، فتغدو إقرارات تثبّتها الهوية في بعديها السياسي والمذهبي، ولذلك سلكنا في منحى معالجتنا لمواعظ الساسة منهج رصد ثغرات وانحرافات السياسة، والتي قد تبلغ حد المغالطة التي تروق تعلةَ للأتباع والمناصرين، ولكنها تبدو معيبة جدا لمَن جعل مطلبه الوقوف على تهافت الخطاب، وهذا الأمر لمسناه في خطاب الخوارج كما في خطبة قطري بن الفجأة في ذم الدنيا أو في خطاب الحجاج بن يوسف الثقفي حين خالف قوله فعله فنُعث بالنفاق.

ملحق خاص بخطبة قطري بن الفجاءة:

ـ خطبة رقم ٤٣٥ من جمهرة خطب العرب : ٢/ ٤٥٤.

وصعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

"أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وحَلِيت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تُؤمن فجعتها، غرارة ضرارة، خوانة غدارة، وحائلة زائلة، ونافدة بائدة، أكالة غوالة، بدالة نقالة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا عنها، أن تكون كما قال الله تعالى: "كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا"، مع أن أمرأً لم يكن منها في حبرة، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بَطنا، إلا منحته من ضرائها ظهرا، ولم تطُلّه غيثة رخاء، إلا هطلت عليه مزنة بلاء، وحري إذا أصبحت له منتصرة، أن تمسي له خاذلة متنكرة، وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى، أمرّ عليه منها جانب وأوْبى، وإن أتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نِعما، أرهقته من نوائبها تعبا، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن، إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرارةٌ، غرورٌ ما فيها، فانية، فان ما عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منه استكثر مما يوبقه، ويطيل حزنه، ويُبكي عينه، كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي اختيال فيها قد خدعته، وكم من ذي أبهة فيها قد صيرته حقيرا، وذي نخوة قد ردته ذليلا، وكم من ذي تاج قد كبّته لليدين والفم، سلطانها دول، وعيشها رونق وعذبها أجاج، وحلوها صَبِر، وغِذاؤها سِمام وأسبابها رِمام، وقِطاعها سَلَع، حبها بعَرَض موت، وصحيحها بعرض سُقم، ومنيعها بعرض اهتضام، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهلع المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل " ليجزي الذين آمنوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى".

ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارا، وأوضح منكم آثارا، وأعد عديدا، وأكثف جنودا، وأعتد عتادا، وأطول عمادا، تُعبِّدوا للدنيا أيّ تعبد، وآثروها أي إيثار، وظعنوا عنها بالكره والصغار، فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد

أهلكتهم بخطْب؟ بل قد أرهقتهم بالفوادح وضعضعتهم بالنوائب، وعقرتهم بالمصائب، وقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها، وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد، إلى آخر المُسند، هل زودتهم إلا السغب، وأحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة؟ أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، أم إليها تطمئنون؟ يقول الله جل ذكره:" من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون " فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها.

فاعلموا – وأنتم تعلمون – أنكم تاركوها لابد، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللهو وقد قال الله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ واتعظوا فيها بالذين قالوا: "من أشدّ منا قوة ؟"، حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا الأجداث فلا يُدْعَوْن ضيفانا، وجُعل لهم من الصريح أكنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم حيرة لا يحببون داعيا، ولا يمنعون ضيفا، ولا يبالون مندبة، وإن أخصبوا لم يفرحوا، وإن قحطوا لم يقنطوا، جمع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متناهون لا يزورون ولا يزارون، حلماء قد ذهب أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجْعهم، ولا يرجى دفعهم، وكمال قال الله تعالى: ﴿فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلا، وكنا نحن الوارثين﴾، استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، ففارقوها كما دخلوها، حفاة عراة فرادى، غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، وإلى خلود الأبد، يقول الله تعالى:" كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين "فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته ورزقنا وإياكم أداء حقه".

المصادر والمراجع

أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، محمد العمري، أفريقيا الشرق، ٢٠١٣م.

جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، صفوت أحمد زكي، المكتبة العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

الخطابة، أرسطو، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٨م.

الخطاب والحجاج، العزاوي أبو بكر، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط١٠، بيروت، ٢٠١٠م.

الخطاب والسلطة، توني فان دايك، ترجمة: غيداء العلي، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٤م.

الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، مطبعة العلوم، ١٩٣٤م.

اللغة والحجاج، العزاوي أبو بكر، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠٠٩م.

فن الخطابة، أرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ط٢، بغداد،١٩٨٦م.

Azzaoui Boubker: Argumentation et Enonciation.préface de:Jean Blaise Grize 2014.

Lee Eclov: Persuasion preaching. The preacher’s use of ethos , logos , and pathos .

Oswald Ducrot: Le dire et le dit .les éditions de minut 1984.

perelman ch l.olberchts-tyteca: (1) Traité de l’argumentation – la Nouvelle rhétorique. 4 édition – Editions de l’université de Bruxelles

(2) l’empire rhétorique .libraire philosophique.paris 1977.

Steve Matthews: Attacking Authority,australian journal of professional and applied ethics,59-70.2011 . (2) 13

www.preachingtoday.com/skills/2016/June/persuasion in preaching html .

Kaynakça / References

Asilat albalagha fi anazaria wa ttarikh wa lkiraa,dirasat wa hiwarat, Mohamed Alomari, Ifrikia Achark, 2013.

Aloghato wa lhijaj, Azzaoui Boubker, Moassassat Arihab Alhadita, Beyrut, 2009.

Jamharat khotab alarab fi ossour alarab azahira, Safwat Ahmed Zaki, Almaktaba Alilmia, Édition 1, Beyrut, 1993.

Alkhataba, Aristote, Tarjamat Abdlkader Kanini, Ifrikia Achark, 2008.

Alkhitab wa lhijaj, Azzaoui Boubker, Moassassat Arihab Alhadita, Édition 10, Beyrut, 2010.

Alkhitab wa sulta, Teun Van Dijk, Tarjamat :Ghidaa Alaliy, Morajaat Wa Takdim: Imad Abdlatif, Almarkaz Alkawmi Litarjama, Édition: 1, 2014.

Alkhataba, Ossouloha, Tarikhoha Fi Azhari Ossouriha Ind Alarab, Mohamed Abu Zohra, Matbaat Aloloum, 1934.

Fan alkhataba, Aristote, Tarjamat Abd Rahman Badaoui, Dar Achooun Athakafia Alama, Afaq Arabia, édition 2, Bagdad, 1986.

Azzaoui Boubker: Argumentation et Enonciation.préface de:Jean Blaise Grize 2014.

Lee Eclov: Persuasion preaching. The preacher's use of ethos , logos , and pathos .

Oswald Ducrot: Le dire et le dit .les éditions de minut 1984.

perelman ch l.olberchts-tyteca: (1) Traité de l'argumentation – la Nouvelle rhétorique. 4 édition – Editions de l'université de Bruxelles

(2) l'empire rhétorique .libraire philosophique.paris 1977.

Steve Matthews: Attacking Authority,australian journal of professional and applied ethics,59-70.2011 . (2) 13

www.preachingtoday.com/skills/2016/June/persuasion in preaching html.